البلاغة العربية

للاستاذ نقولا الحداد

البلاغة فى اللغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . والفصاحة هى سلامة الكلام من التنافر والتعقيد ومن الألفاظ المهجورة والوحشية . واللغة العربية لا تختص بهذا التعريف وحدها ، بل هو تعريف البلاغة فى كل لغة ، لأن البلاغة عمل عقلى أكثر مما هى أداة كلامية . وهى منطق أكثر مما هى فن تعبير . بل هى فلسفة أكثر مما هى قاعدة بيان

إذن فأركانها صحة العقل وصفاء الفكرة وجمال الذوق واتساع المعرفة وطاعة الكلم للسان والقلم . فاذا اجتمعت هذه فى القائل أو الكاتب فى أية لغة كان كلامه بليغاً

أما صحة العقل فأساس المنطق لتطبيق القول على المعنى المراد بغية إقناع السامع أو القارىء بصواب القول وارتياح النفس إليه

وأما صفاء الفكرة فأساس البيان لأنه لا يمكن أن تقيم بناء بيان على فكرة مضطربة متقلقلة ، ولا يمكن أن يفهم السامع أو القارىء ماذا يعنى القائل بكلامه المضعضع . ولا يمكن أن يتم الاتصال بينهما على وثيقة

وجمال الذوق لابد منه لتبليغ الكلام البليغ إلى ذهن القارىء أو السامع أو إغرائه بمعناه وتغذية العقل بمعرفته . فاذا خلا البيان من الذوق الجميل كان منفراً ، وإذا غنى به كان جذاباً ساحراً . وإن من البيان لسحراً

والمعرفة مادة الكلام . هى الجواهر التى يصاغ منها الكلام البليغ . فالكاتب الذى يكتب فى موضوع بضاعته فيه قليلة أو ضئيلة أو سقيمة لا يصوغ إلا فقاقيع زبد لا تلبث أن تذهب أمام استكناه معناها ذهاب الرغاوة مع الريح . يجب أن يلم الكاتب إلماما كبيراً بما يكتب لكى يستطيب القارىء بلاغته وإلا مله لأول فقرة ونبذه

بقى أنه لا بد للكاتب أو المتكلم أن يكون قائماً على كتب اللغة وأن تكون الكلم الفصاح فى متناول يده يختار منها أليقها لمكانها فى الكلام وأوقعها فى السامع وأدنتها للأذهان ، ويجب أن يعلم الكاتب أن لكل مقام مقالا وأن لكل قوم كلاما موسوما وأن لكل زمان ألفاظا مأنوسة . فما أقبح أن يخاطب المتكلم أو الكاتب أناساً بألفاظ غريبة عنهم أو ناشزة فى مسامعهم أو بعبارات معقدة تستكد أذهانهم

هذه بعض أوليات البلاغة . وقد تبسط فيها الأستاذ البليغ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة فى كتابه « دفاع عن البلاغة » ، ومباحثه فى هذا الكتاب طريفة ؛ فهو يعطى للبلاغة صفة الفلسفة ويكتب فيها كفيلسوف مركبا فى فصل آلة البلاغة ، ومحللا فى فصل الذوق ، ومركباً ومحللا معاً فى فصل الأسلوب . وهو الفصل الذى أفاض فيه ببيان صناعة القلم من جميع وجوهها . ولا بدع أن تكون البلاغة ضرباً من الفلسفة ، لأن المعنى واللفظ متلازمان ملتحمان ، الثانى صورة للأول ، والأول نتاج العقل ، فبراعة الكاتب تظهر فى استطاعته أن يلائم المادة بالعقل وأن يلبس المعنى الثوب اللفظى الأنيق اللائق على قدره لا أضيق ولا أوسع

ولأن البلاغة ضرب من الفلسفة فهى فى رأى الأستاذ الزيات كسائر الفنون طبيعية موهوبة لا صناعة مكسوبة . ولعله تطرف فى هذه العقيدة أو غالى فى قصرها على الفن ؟ لأن هناك ضرباً من الكلام مكان الفن فيه قليل أو عديم . إذا كتبنا عن سر القنبلة الذرية لا نجد موضعاً للفن إلا إذا كتبنا عن تأثيرها فى الحرب أو الاجتماع . يكفى أن نحسن كشف السر وبسطه من الناحية العلمية لكى نجلوه للقارىء جيداً . فالبلاغة فى هذا المجال صناعة مكسوبة أكثر مما هى فن موهوب . وفى كلتا الحالتين لا غنى عن القواعد للايضاح والاحتراز من اللبس

إن تطبيق اللفظ على المعنى هو غاية البلاغة القصوى سواء كانت فنا أو صناعة . والأستاذ الزيات قد أجاد كل الإجادة فى فلسفة البلاغة وضرب بكل سهم فى مذاهبها . فهو إذن نبراس الهدى لأهل اليراعة .

* * *

فى حين أن ظهر كتاب « دفاع عن البلاغة » ظهر كتاب « البلاغة العصرية واللغة العربية » للاستاذ سلامه موسى . وهو كتاب طريف المباحث أيضاً . لا أظن أحداً خاض فيهما قبله أو سبقه إليها . هو فلسفة الكلام أو الكلمات . أو لك أن تقول

هو فلسفة تطبيق اللفظ على المعنى بمقتضى حاجة العصر . العصر يتغير والمعاني تستجد . فبالأحرى أن تتغير الألفاظ وأن تستجد . وبالأحرى أن تلاحق الأقلام هذا التجدد والتجدد ضربة لازب للتطور . ولا يحدث تطور إلا إذا لم يعزل القديم إلى «الاتكخانة» المتحف ويؤتى بالجديد . فقطار العمران اليوم غير قطار البادية منذ قرون . وطائرة هذا القرن غير الأطيار التي كنا نحسدها على ملكية الجو . فلكل زمن تفكيره وتعبيره . ولا مناص من تغيير التعبير إذا تطور التفكير .

نحن اليوم في جيش لجب من الأدوات والآلات . ولا غنى لنا عن أسماء لها انظر كم أداة في الأوتوموبيل وفي المطبعة ولا سيما مطبعة الروتاتيف وفي الباخرة والبارجة والقاطرة الخ . لكل هذه الأدوات أسماء وضعها لها مخترعو الأدوات . ولم يكن عند أسلافنا لا أوتوموبيل ولا مطبعة ولا بارجة ولا قاطرة . إذاً فليس في لغتنا أسماء لهذه الأدوات . فاذا بحثنا في لغتنا عن لفظة تليق للاوتوموبيل كسيارة مثلا فنكون قد غيرنا معنى السيارة القديمة كما أننا غيرنا معنى القطار القديم . فالتغيير لابد منه للتطور ولذلك بعد الجديد عن القديم وصار لكل زمان لغته .

إذا كنا كلما استجد معنى استعرنا له لفظاً في القديم التبس جديدنا بقديمنا ولا سيما إذا كان المعنى القديم نفسه قد وضع على الرف .

اللولب في السُدُم اللولبية أو الحلزونية الشكل يستعمل بدل البرغي ، هذا جديد وذاك قديم ولكن هذا درج على الألسن وذاك أهمل . وللبرغي حاملة . فإذا سألنا اللغوي أن يأتينا بلفظ عربي للحاملة فماذا يختار .

أجل لغتنا غنية بالكلم . غنية جداً . ولكنها كانت لغة العرب منذ عشرين أو أربعين قرناً فلم تعد تسعنا الآن . لغتنا غنية بالكلمات الصالحة للادب والشعر ولكنها فقيرة جداً بالكلمات الصالحة للعلوم العملية الحديثة كالكيمياء والبيولوجيا وما تفرّع منها والصالحة للفنون الآلية . فإذا أصررنا على اختيار لفظ لكل ما جد في هذه وهو لا يحصى بالألوف بل بمئات الألوف كنا نفصل أثواب المعاني القديمة القليلة ألوفا من الملابس للمعاني الجديدة . وهو مستحيل لأننا نرى حينئذ القديم والجديد كليهما عاريين .

إذاً فلابد من أن نقتبس الكلمات الأجنبية الجديدة للاشياء التي اقتبسناها . ويكفي أن نطوعها للصياغة العربية ما أمكن . فنقتبس كلمة الاسبيرين كما أخذنا الاسبيرين من الغرب . ونقبل كلمة ياقة التي درجت على ألسنتنا لأن كلمة طوق لا تقوم مقامها لأنها تلتبس بالقلادة .

أعني لابد من توسيع صدر اللغة لقبول بعض الكلمات الأجنبية التي جدت لأشياء جديدة لكي تجاري روح العصر . وإذا أخذنا نبحث في لغتنا عن كل كلمة قديمة لكل معنى أو شيء جديد كنا لا نزال نلتفت إلى الوراء ونتمسك بأهداب القديم ونصر على البقاء حيث كان السلفاء . إذاً فلا نلوم الغربيين إذا استغلوا تأخرنا هذا .

هذا شيء من وحي كتاب الأستاذ سلامه موسى ولا يمكن استيفاء جميع مباحثه إلا إذا نقلنا الكتاب برمته إلى هذه المجالة فخير للقارىء الذي تطيب له هذه الأبحاث أن يطالع الكتاب نفسه

أوافق الأستاذ سلامه على مشروع تبسيط قواعد اللغة العربية لكي نقتصد بالوقت والجهد في دراستها ونأمن الخطأ في استعمالها لأنها كثيرة متشعبة ويستغرق وقتاً طويلا في حفظها . ولا يمكن أن يُدرس معها الكثير من علوم العصر وفنونه . يمكن تبسيطها واختصارها جداً من غير أن يثلم التعبير بها . وإلا نفر العدد الأكبر من طلابها منها كما هو حادث اليوم .

ولكني لا أوافق الأستاذ على تنقيح الحروف العربية ولا إبدال الحروف اللاتينية بها . فحروفنا أفضل من كل حرف أجنبي يبدل به لها . لأنها في القرون التي مرت انصقلت وصارت كأنها الخط المخزل . نعم إن لكل حرف صورتين أو ثلاثة . ولكن هذه الصور لا تجعل الحروف أزيد من ١٥٠ حرفاً . ومن يتعلم ٢٨ حرفاً يستطيع أن يتعلم ١٥٠ كما تعلمناها وما عانينا وتعلمها الأجانب وما تذمروا .

بقيت مسألة الحركات التي يتخذها دعاة الحرف اللاتيني سبباً لابدال الحروف . فهذه يمكن الاستغناء عنها في كثير من مواقفها . ففي الأفعال الثلاثية لا لزوم لها إلا على عين الفعل ماضياً ومضارعاً . ويستغنى عنها في جميع مشتقات الأفعال الرباعية والخماسية والسداسية ومصادرها ، ولا حاجة لها إلا في اسم المفعول